مسرح الطفل
المقومات والخصائص

د: محمد مجاهد
باحث في التربية والتعليم ومسرح الطفل
المغرب

تمهيد:

يقول بتربروك: " كل الأطفال ممثلون، ويلتزمون المنهج بدرجة أو بأخرى، لأنهم حساسون منطقيون، يريدون أن يعرفوا ما الذي سيفعلونه ولماذا في نفس الوقت ..." [1]

هذه القولة توضح تلقائية الطفل الفطرية في خوض عالم التمثيل باعتبار هذا الأخير مستودعا لفنون وتقنيات تعبير متعددة، فحاجة الطفل إلى الحركة واللعب والتمثيل تبقى أساسية في تكوينه النفسي وتحقيق توازناته مع المحيط، وهذا يتطلب منه توظيف أعضائه وطاقته الانفعالية ومختلف خبراته السلوكية والمعرفية، ومن هنا نفهم مدى استثمار المشتغلين بمسرح الطفل للحركة كأداة تعبيرية، وللغة كوسيلة للتحاور، وللتقنيات والأحجام لتشكيل الفضاء، وللأدب والعلوم والثقافة لتنمية الرصيد المعرفي، وكذا للألوان في الإنارة والملابس لتربية الذوق الفني، ويفهم من القولة أيضا أن مسرح الطفل مسرح يعتمد على دينامية الطفل وولعه بالارتجال والمحاكاة وتقليد الأدوار، وذلك لأن " الدراما الإبداعية تقوم على اللعب، حيث تحقق ساعات اللعب الطويلة دورا كبيراً في التوزان ... فعملية تمثيل الأدوار المتخيلة تمكن الطفل من فهم مشاكل واقعة، والبحث عن الحلول المناسبة من خلال الإيهام" [2].

وإذا كان المسرح أقرب الأشكال الدرامية إلى الطفل فإلى أي حد يستثمر حيوية الطفل وشغفه باللعب؟ ثم كيف يجعل المسرح من اللعب الارتجالي لعبا منظماً؟

إن الإجابة عن هذين السؤولين تستدعي أولا الوقوف على التداخل الحاصل بين مجموعة من المفاهيم هي: المسرح، الدراما، مسرح الطفل، المسرح المدرسي، المسرح التربوي، أو النشاط التربوي بغية معرفة حدودها والوقوف على التقاطعات فيما بينها.

2-1 المسرح والدراما: إشكالية التعريف.

يتفق معظم الباحثين على أن ظاهرة التمسرح رافقت الإنسان منذ خطا أولى خطواته على الأرض أي منذ ظهرت حاجته الأولى إلى التعبير عن احتفالاته وأفراحه أو عن همومه وأتراحه في شكل طقوس أو كرنفالات منظمة أو مرتجلة.

فالمسرح كما يرى باتريس باخيس كان في الأصل عبارة عن " حفل ديني تقيمه مجموعة إنسانية لتحتفي بشعيرة زراعية (الإخصاب مثلا) تقوم على مشاهد نرى فيها إليها يحتضر ليحقق حياة أفضل، أو سجينا يواجه الموت، أو استعراضا دينيا أو حفلا تهتكيا: «orgiaque» أو كرنفالا منظما..."[3]. ويفهم من هذا أن الاحتفال الديني كان منبعا للمسرح، حيث تروي المصادر التاريخية أن المسرح اليوناني انحدر من طقوس الاحتفال بأعياد " ديونيزوس"، كما تحدر المسرح الفرعوني قبله من الطقوس الجنائزية.

لا تختلف الدراما في نشأتها كثيراً عن المسرح لكونهما تقريبا وجهان لعملة واحدة، فالدراما نشأت عن حاجة الإنسان إلى الإحاطة بمختلف تجارب الحياة واستنباط نَواميسها واستثمار هذه القوانين في حسم صراعه مع الطبيعة، أو مع القوى الغيبية لصالحه. فكان

يجسد هذا الصراع في شكل طقوس الرقص والغناء والمرح والتعبد والعربدة والصراع... ولم تكن هذه التجسيدات إلا النواة التي أسست لبروز الدراما.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الدراما كلمة يونانية انتقلت إلى اللغة العربية لفظا لا معنى وهي على رأي دوانس " نوع من أنواع الفن الأدبي ارتبطت من حيث اللغة بالرواية والقصة، واختلفت عنها في تصوير الصراع وتجسيد الحدث وتكثيف العقدة، وقد تأخذ الدراما شكل الشعر وزنا وقافية أو قد تتحرر من هذين القيدين حين تأخذ شكل النثر، والدراما كلمة كانت تطلق على كل ما يُكتب للمسرح أو على مجموعة من المسرحيات التي تتشابه في الأسلوب أو المضمون "[4]، ولا تكتمل الدراما إلا بعرضها على الركح، لأن العرض أهم ركائزها ومقوماتها، كما أن الممثل هو حجر الزاوية فيها، وتتميز الدراما عن باقي الأجناس الفنية بمزج الواقعي المقيد بالزمان والمكان بالمتخيل المكسر لكل القيود والضوابط والذي توهمته فقط ذاكرة المبدع، وبناء عليه يمكن القول " إن الدراما شكل من أشكال الفن الأدبي القائم على تصور الفنان لقصة تدور حول شخصيات تدخل في أحداث، وتتسلسل أحداث هذه القصة من خلال الحوار المتبادل بين الشخصيات، ومن خلال الصراع الذي ينشأ ثم يتأزم ثم ينتهي عن طريق المصالحة أو الفصل بين القوى المتصارعة وتتجسد هذه الصورة عن طريق الممثلين والديكور والملابس والإضاءة والموسيقى..." [5].

2-2 مسرح الطفل.

يعرف قاموس أكسفورد مسرح الأطفال بأنه عروض الممثلين المحترفين أو الهواة للصغار سواء كانت في المسارح أو في صالات معدة لذلك، و يؤكد صراحة على أنه يشتمل على النشاط المسرحي المدرسي أو الاستخدام الحديث للدراما كأداة تعليمية، فيما يمكن أن نسميه بالمسرح التربوي[6]، ويستنتج من هذا التعريف أن مسرح الأطفال هو عروض يقدمها الكبار للصغار، وقد تكون هذه العروض ذات طابع تعليمي أو تربوي.

أما معجم المصطلحات الدرامية فيجعل من مسرح الأطفال " المكان المهيأ مسرحياً لتقديم عروض تمثيلية كتبت وأخرجت خصيصا لمشاهدين من الأطفال: وقد يكون اللاعبون كلهم من الأطفال أو الراشدين أو خليط من كليهما معا، وعلى هذا فالمعول الأساس في التخصيص هو جمهور النظارة من الأطفال الذين انتجت لأجلهم العملية المسرحية نصا واخراجا"[7]، ومفاد هذا الرأي أن مسرح الأطفال مكان مخصص تعمل به أطر متخصصة تقدم عروضا خاصة بالأطفال فقط.

والرأي نفسه تقريبا يتبناه قاسم محمد حيث يعتبر مسرح الأطفال مكانا يقدم فيه راشدون محترفون أعمالا مسرحية ينفعل بها الأطفال المتفرجون الذين يستمتعون بمشاهدته. وهذا المسرح يكتبه مؤلف متخصص ويخرجه كذلك ويمثله راشدون متخصصون[8]، ويشير هذا الرأي أيضاً إلى مسألة التخصص في التأليف والإخراج والتمثيل وكذا الإلمام بعالم الطفل وضرورة كل ذلك في تقديم منتوج مسرحي جيد للطفل.

أما يوسف عبد الثواب فيرى " أن مسرح الأطفال هو المسرح البشري الذي يقوم على الاحترام من أجل الأطفال والناشئة فحسب، وتحدد وظفته الاجتماعية بأنها مساهمة عن طريق العمل الفني في التربية وبناء الأجيال الصاعدة. ولهذا المسرح أهداف أخلاقية عالية تسير جنبا إلى جنب مع المتعة الفنية إذ يجب أن يقدم لجمهوره تجارب ممتعة على أن يكون فيها واضح الهدف قوي السرد، يعين الطفل على تلمس أفكاره وسط عالمه الذاتي وإدراك كنه الحياة والعيش مع الحاضر بكل متطلباته" [9]. إن مسرح الطفل حسب هذا الرأي هو مسرح تربوي ذو أهداف أخلاقية تهذيبية، يمكن الأطفال من اكتشاف عالمهم فهو بمثابة " مرآة أمام الأطفال ليروا من خلالها واقعهم ويدفعهم إلى أن يدركوا أن لهم دورا في تغيير ذلك الواقع، يقودهم إلى التفكير واحترام المثل النبيلة والالتزام بها، وازدراء المفاهيم البالية، وإشباعهم بروح الكفاح الوطنية، وإدخال الجمال إلى حياتهم، وإعدادهم لأن يكونوا طاقات خلاقة منتجة " [10].

وخلاصة القول؛ إن المسرح يعد من أكثر الفنون اقترابا من ميدان الطفل كما يعتبر الأداة الفنية القادرة على نقل أي مضمون اجتماعي وتربوي بطرق بسيطة ومضمونة.

وبالتالي؛ فهو أنسب الوسائل الفنية للتعامل تعليميا وتربويا مع الطفل "[11]. لذا فإن " غرس بذرة الاهتمام بالمسرح لدى الطفل وتزويده بالثقافة المسرحية منذ الصغر، لا بد أن يؤتى ثماره – مستقبلا – في تشكيل وعي ووجدان المشاهد الكبير"[12].

2-3 المسرح المدرسي.

لا شك أن ولع الأطفال باللعب وخاصة اللعب الإيهامي والتمثيلي دفع بالكثير من المربين إلى استخدام المسرح كوسيلة من وسائل الايضاح في تدريس الكثير من المواد الدراسية، و " يكفي هنا أن نذكر أن بريطانيا والولاية المتحدة الأمريكية، وغيرها من دول العالم المتقدم قد أدخلت المسرح ضمن المناهج الدراسية منذ أوائل القرن (ق 20) واستعملته باعتباره مادة قائمة بذاتها لتنمية قدرات المتعلمين في التعبير عن أنفسهم وواقعهم، وكذا بوصفه وسيلة تربوية إيضاحية ناجعة" [13].

إن المدرسة الحديثة تؤمن بمزاولة عدد من الفنون الجميلة كالرسم، الرقص، الموسيقى، المسرح، لكسر رتابة وملل الدروس النظامية ولتهذيب الحياة وإعطائها لونا جذابا ونكهة مثيرة لأن التجارب أثبتت أن الطريقة المثلى للتعلم إنما تكون عن طريق الممارسة والاحتكاك وليس بالإصغاء والاستماع"[14].

ولعل المسرح المدرسي أفضل وسيلة لتهذيب الذوق وإرساء قواعد الشخصية وتنمية مواهب الناشئة وإثراء " ثقافتهم وخبراتهم ومعلوماتهم عن الأنشطة المختلفة التي تمارس من خلاله كما تزيد من حصيلتهم اللغوية، وملكة تذوقهم للأدب، إلى جانب إثراء بفنون الرسم والديكور والإخراج وإدارة المسرح والإضاءة والملابس وغير ذلك "[15].

لا تختلف الآراء السابقة حول المسرح المدرسي عن آراء المربين الغربيين، فمنظمة مسرح الطفل الأمريكي ترى أن المسرح شكل درامي ارتجالي يقوم فيه الأطفال تحت إشراف معلمهم بتمييز أدوار متخيلة من شأنها توسيع تجاربهم الإنسانية، وتحقيق العلاج النفسي لبعضهم من خلال ارتجال أحداث وحوار يعري خباياهم ويكشف مكبوتاتهم، كما ينمي ملكاتهم اللغوية..."[16].

ويحدد ألون المسرح المدرسي على أنه " صيغة للتعبير الخلاق، وأهم مكوناته الرئيسية هي القدرة على الكلام والحركة، ويعتمد القابليات الطبيعية وسيلة للتعبير لجميع الأطفال.

أما عوني كرومي فيقترح تعاريفا أقرب إلى التعاريف التي أوردناها سابقا-حول مسرح الطفل-منه إلى المسرح المدرسي، حيث يركز على وجود فرقة مسرحية تضم تلاميذ موهوبين من مختلف المدارس التابعة لمقاطعة تربوية يعتمد نشاطها على العمل خارج أوقات الالزام المدرسي، وتكون تحت إشراف مديرية الأنشطة التكميلية "[17].

وذلك بهدف تسلية التلاميذ وتثقيفهم وتدريبهم على ممارسة فنون المسرح، في حين يذهب حسن مرعي إلى أن المسرح المدرسي هو مجموع النشاط بالمدارس التي تقدم فيها فرقة المدرسة اعمالا مسرحية لجمهور التلاميذ والأساتذة وأولياء الأمور، وهي تعتمد على إشباع الهوايات المختلفة كالتمثيل والرسم والموسيقى وغيرها[18].

أما جمعية تنمية التعاون المدرسي المغربية فترى أنه مسرح تربوي تعليمي تعلمي، باعتباره مكونا من مكونات وحدة التربية الفنية والجمالية، والتفتح التكنولوجي وأنه نشاط تعاوني، الشيء الذي لا يجعله بالضرورة مناسباتيا. بل يمكن الاستفادة منه في المناسبات المدرسية، والدينية والوطنية وغيرها. ما دام مرتبطا بالمجتمع الذي يمده بالقيم الحضارية والثقافية في بعدها الإنساني".

يتضح من هذه التعاريف أن المسرح المدرسي يخضع لمجموعة من الممارسات التعليمية الموازية للبرامج النظامية الإلزامية ومواكبا للمناهج المسطرة، وهو فن متعدد الأنشطة والممارسات المعرفية والتقنية والمهارتية المرتكزة أساس على عنصر اللعب والتلقائية، والتخييل بغرض التسلية والترفيه والتواصل، وتكمن نقطة بدئه في اللعب التمثيلي الذي يعتمد الايهام والتخييل والمحاكاة.

2-4 المسرح التربوية.

لم يتبلور المفهوم التربوي للمسرح إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث أصبح يتضمن المسرح والتربية والتعليم معا، ذلك أنه يستعمل وسائل مسرحية لتقديم تجربة الهدف منها تربوي، فبرنامج المسرح في التربية يشمل عناصر المسرح من جمهور ومكان العرض، ولا يجب أن يفهم أن المسرح في التربية صورة أخرى للمسرح العادي، بل يختلف من حيث الاعداد والهدف والمضمون، ويتميز هذا المسرح عن غيره بالطريقة التي يسلكها لإيصال المادة إلى الطلاب، ويمكن حصر هذه المميزات فيما يلي:

- أنه يقوم بإعداد برامج مسرحية توضع لتؤدي هدفا معينا.
- أن فريق العاملين فيه هم أشخاص تتوافر لديهم مهارات الاتصال وحسن الأداء والاستماع إلى الطلبة وهي صفات يتصف بها المعلم والممثل، لذا يطلق على العامل في هذا الفريق اسم ممثل-معلم لأنه يؤدي وظيفة المعلم في دور الممثل.
- إنه غالباً ما يعد البرامج بحيث يسمح للطلاب بالمشاركة الفعلية في الأداء المسرحي.
- أن جمهوره هم التلاميذ ولا يزيد عدد هذا الجمهور على صف أو صفين.
- أن البرنامج يقدم في المدرسة أي في ردهتها وليس في المسارح، ولكن عملية الاعداد تتم عادة خارج المدرسة، أي في مكان إقامة الفريق.
- " أنه كغيره من أشكال المسرح التربوي لا يرتبط بأية قاعدة أو مذاهب مسرحية، ولا يقتصر البرنامج على مادة دراسية معينة دون أخرى، بل يمكن " مسرحة" المناهج أو أية مادة تربوية من واقع الحياة، أو خيالية بأية طريقة مناسبة تحقق الهدف وتناسب أعمار التلاميذ الذين سيقدم لهم البرنامج "[19].
- يرى كاسا نيللي أنه إذا كان التعليم معاناة، فإن للمسرح دورا كبيرا في إيجاد طعم جديد ورغبة جديدة في جعل المدرسة أقل " مدرسية" قدر الإمكان وفي إعادة ترتيب أوراق العملية التعليمية بشكل أكثر تكاملا.
- إن علماء النفس والمربين نادوا بضرورة استثمار المسرح في التربية واستغلال عنصر اللعب في تنمية الطفل.
- وخاصة أن اللعب شيء غريزي في الطفل وبالإمكان تسخيره لخدمة العملية التربوية وذلك بوضع الأنشطة المدرسية المختلفة في البرامج التي ترتكز على اللعب بشكل يحقق أهدافاً تربوية مدروسة.

الهوامش:

[1]– بيتر بروك: النقطة المتحولة، ترجمة فاروق عبد القادر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة ص: 275.

[2] – محمد الشتيوي: ملحوظات حول المسرح التربوي، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الرابع، يناير / فبراير / مارس / 1988.

[3] – حسن بحراوي: المسرح المغربي بحث في الأصول السوسيو ثقافية، ط 1 1994، المركز الثقافي العربي، ص: 7.

[4] – حنان عبد الحميد العناني: الدراما والمسرح في تعليم الطفل، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط 3، 1993، ص: 7.

[5] – نفسه ص: 8-9.

[6] – معجم أكسفورد، ص 150-151.

[7] – إبراهيم حمادة: معجم المصطلحات الدرامية، دار المعارف القاهرة 1985 ص: 216.

[8] – د. هادى نعمان الهيتي: أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه، الهيئة المصرية العامة، القاهرة 1916، ص: 304.

[9] – حنان عبد الحميد العناني، م-س، ص: 24.

[10] – د. هادي نعمان اليتي، م-س، ص: 304.

[11] – علي شلس: من مقعد الناقد، سلسلة اقرأ، عدد507، دار المعارف القاهرة 1985، ص 86/85.

[12] – المرجع نفسه، ص: 86.

[13]– محمود الشتيوي: ملحوظات حول المسرح التربوي، عالم الفكر، الكويت، م م 4، يناير فبراير مارس 1988، ص: 157.

[14] – د. نبيل سليم: دراما الطفل العربي، الكويت، م 292، من مارس 1983، ص: 166.

[15] –احمد شوقي قاسم: المسرح الإسلامي روافداه ومناهجه، دار الفكر الفكري، ص: 317.

[16]– الدليل العملي في المسرح المدرسي، ص 13.

[17] – نفس المرجع، ص: 14.

[18]– نفس المرجع، ص: 15.

[19] – حمدي جابري: مسرح الطفل في الوطن العربي، مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، ص: 50-51.